

الثوابت في فكر كمال جنبلاط

سلام الحقيقة عليكم وروح المحبة وريحان التضامن والترابط

الأهل الكرام الأخوة ، الأصدقاء ، الرفاق .
منذ البدء كان العقل جوهرًا روحانيًا فاعلا يضبط نظام هذا الكون ويخضعه لقوانينه السببية . ومنذ البدء كان النفس جوهرًا روحانيًا منفعلًا يخرج ما هو موجود بالعقل بالقوة الى الوجود بالفعل . ومنذ البدء كان الكلمة سفيرًا بين العقل والنفس يجسد ارادة العقل ومشينة النفس ، الكلمة التي تنطق متسمى فكرا وتتجسد متسمى عملا يكون الفكر من العمل بمنزلة اللاهوت من الناسوت ، بمنزلة المعنى من الحرف ، وتصل الكلمة الى مجد عظمتها عندما تتجسد لحما ودما انسانيًا على أرض الواقع الاجتماعي

لأن الانسان لا يمكن تصوره الا كأننا اجتماعيا يفعل بالآخرين وينفل بهم ، يرى وجوده على مراه الآخرين ويرى الآخرون وجودهم على مرآة ذاته .
هكذا فهم المعلم كمال جنبلاط ورفاقه جوهر الانسان وحسده في ميثاق الحزب التقدمي الاشتراكي . انه تجسيد للكلمة المنفتحة على العقل المتصلة به دائما عبر روح قدس المعرفة والعرفان والمعبرة عن وجودها في الواقع المحسوس عملا انتاجيا يعطي الخبز للجائع والثوب للعاري والدواء للمريض .
الكلمة التي تتجسد مؤسسات ترعى حق الانسان في العلم والعمل والتطور والارتقاء

وأفكار المعلم بأكملها وميثاق الحزب التقدمي الاشتراكي يستلهمان هذا المفهوم ، فالانسان هو الغاية والنهائية لأنه قبس نوراني انطلق من فيض الألوهة الذي سماه شاردان بالطاقة الكونية . هذا القبس الذي يمارس وعيه الحر وادته الابداعية في لحم ودم جسد المادة . كل شيء في خدمة سعادة هذا الانسان وفي خدمة كرامته وتطوره ، الانسان ابن المجتمع في جانبه المحسوس ، سعادته في العمل المثمر والقوانين العادلة والمؤسسات التي ترعى المصلحة العامة .
وهو في جانبه الروحاني ابن الله يسعى دوما لينجذب اليه على صراط مستقيم، عقله الكلي بقوانينه التي تضبط نظام الوجود .

وبما أن العقل ليس إلا القدرة على الاختيار الحر والممارسة الحرة كانت الحرية توأم العقل ووجهه الآخر لا عقل حيث لا حرية ، ولا حرية حيث لا مسؤولية ، ولا شيء حيث لا مجتمع . فقدر الانسان أنه كائن اجتماعي يجب أن يكون حرا كفرد وليكون عاقلا . ويجب أن يكون عاقلا كفرد ليحقق وجوده ككائن اجتماعي ، ثم يعرج في الكمال ليصل الى مرحلة التأله في الحق والخير والجمال والعدالة .
هذه زبدة عدة مقالات ومحاضرات تركها لنا المعلم زاد معاد ننتفع بها على مقدار عقولنا وادراتنا لا على مقدار عقل وادارة صاحبها ، وعسى أن يحالفنا التوفيق فنقول أن المعلم أعطى الانسان أبعادا ثلاثة . الانسان الفرد ، الانسان الاجتماعي ، والانسان الكوني .

الانسان الفرد إعتبره المعلم مجسما صغيرا لهذا الكون اللامتناهي يحتوي جسده على نفس النسب المئوية للعناصر التي يتركب منها الكون قاطبة ، فهو جسد كثيف يخضع لقانون الصيرورة في الكبر والصغر والنمو والتحلل ، ولهذا نرى هذا الجسد يتأثر بأي تغيير يطرأ على توازن العناصر المركبة في البيئة التي يعيش فيها فإذا ما طرأ يراي جنبلاط أي تغيير في أي مجرة أو كوكب أو قارة أو بلد واختلطت نسب المعادلات ، فالجسد البشري يتأثر لأنه في تناغم مستمر مع جسد الكون وتركيبه عناصره ، وكما الكون يديره عقل كلي يضبطه في قوانين تربط النتائج بأسبابها كذلك الانسان الفرد يملك نفسا عاقلة هي جوهر وجوده وحافضة نظامه ، وهذه النفس بقدر ما تتشبه بمثلها الأعلى العقل الكلي وتنهد اليه وتتناغم مع قوانينه ، بقدر ما تصيب من السعادة والكرامة والسوؤدد .. فشرف النفس العاقلة وسعادتها في مزيد من الوعي ومزيد من تحصيل المعرفة والتناغم مع قوانين العقل والطبيعة ، ولكن جنبلاط وبفكر جدلي هيروقليطي هيجلي يربط بين العقل والحرية . فالعقل إذا لم يكن مريدا كان عاجزا أي موجود بالقوة ولا يستطيع أن يكون موجودا بالفعل . والإرادة ليست إلا القدرة على اختيار الشيء أو هذه اختيارا حرا دون إكراه أو إجبار ، ولذا وجدنا جنبلاط يرفض كل أنواع الفلسفات والإيديولوجيات الجبرية الأحادية الشمولية وفكرة القدر على أساس أنه قوة فوقية تتحكم بسلوكية الإنسان وتوجهه من خارجه ، فالقدر برأي جنبلاط ليس إلا ردة فعل التصرف الإنساني على أرض المجتمع تماما كما قال السيد المسيح بالكيل الذي تكيل يكال لك .

البعد الثاني للإنسان أنه كائن إجتماعي بالفطرة يؤثر في الآخرين ويتأثر بهم سلبا وإيجابا ، والمجتمع برأي جنبلاط ليس مجموعة أفراد يتراكمون عدديا بل هو كيان يملك عقلا جماعيا يطبع الأفراد رغم تعددهم بطابع وحدوي توحيدي ، فتفاعل الأفراد وتناغمهم يحولهم من كم عددي متراكم الى نسيج عضوي واحد له كينونة واحدة إسمها المجتمع ، فكما اللحن هو مجموعة الآف النغمات الصوتية المتناسقة والضجيج هو مجموعة الآف النغمات الصوتية المتنافرة هكذا يكون المجتمع الحضاري الحي لحنا موسيقيا يشنف آذان البشر والآلهة ، والمجتمع المتخلف الظلامي ضجيجا يولد الازعاج والتناقض عبر تضارب المصالح وتشرذم الأهداف .

هذا المجتمع اللحن المتناسق بنفحات أفراده هو مجتمع الكفاية والعدل الذي حدثنا عنه جنبلاط ، مجتمع الاقتصاد الانتاجي لا الاقتصاد الريعي ومجتمع توزيع خيرات اللانتاج بعدالة بين جميع الأفراد حيث تلغي هذه العدالة الفوارق الطبقيّة الحادة وتقوي شعور انتماء عند المواطن الى مجتمعه ووطنه .

مجتمع الكفاية والعدل ، مجتمع يقدر العمل وشعاره الإنسان يخلق نفسه عبر العمل ويجدد ذلك الخلق ويطوره باتجاه كمال نوعه . ولذا يصبح العمل فرحا وغبطة يمارسه العامل كما يمارس الطفل اللعب . كان جنبلاط يقول دائما إعملوا كأنكم تلعبون بفرح وغبطة عندها يصبح العمل نعمة لا نقمة .

والعدالة برأي جنبلاط ليست ديمقراطية عديدة بل إنتخاب طبيعي ، إنها ديمقراطية النخبة الواعية لا ديمقراطية الجماهير الغوغائية التي قال فيها الشاعر :

أثر البهتان فيها وانظلي ازور عليها

يا لها من بىغاء عقلها في أذنيها

هذه العدالة تثمر فضيلة كما النار تثمر دفنا والثلج يثمر برودة ، فعلاقة العدالة بالفضيلة كعلاقة البنفسح بطيبه والورد بمائه إنهما وجهان لحقيقة واحدة . لا فضيلة حيث لا عدالة ولا عدالة حيث لا فضيلة . وبهذا يكون جنبلاط قد أخرج الفضيلة من إطارها الحصري على الطريقة الدينية ، لا تقتل لا تزني لا تشتهي امرأة جارك الى الفضيلة بمعناها الإجماعي دع عملك يتناسق مع أعمال الآخرين ، دع أفكارك تتناغم مع أفكار الآخرين إعتبر سعادتك جزءا من سعادة الآخرين إحترم القوانين التي صاغها عقل المجتمع العام إنها التقاليد والأعراف المقدسة . وكما العدالة والفضيلة وجهان لحقيقة واحدة يغدو الجهل والرذيلة وجهان لحقيقة واحدة فالجهل هو الظلم والظلم معناه أن يأخذ الإنسان من المجتمع أكثر مما يعطي والرذيلة أعمال الأفراد المتضاربة المتناقضة التي لا يجمعها جامع هو المصالح العليا للمجتمع .

بعد الإنسان الثالث عند جنبلاط هو بعد الانسان الكوني التي تبدأ رحلة كونية بإفراغ قلبه من أي هوى سابق للجماعة الضيقة ابتداءً بالإسرة فالقبيلة فالطائفة فالقومية على حساب الحقيقة العقلية الثابتة في شموليتها ، الإنسان الكوني لا يهوى إلا الحقيقة ببهاء عدالتها وخيرها وجمالها ، الحقيقة التي هي تجسيد لنواميس الوجود الثابتة في هذا العالم الحسي المتحرك باستمرار ، إنها حب الثابت في لعبة المتحرك ، حب السرمدى الخالد في لعبة التركيب والتحلل ، حب العقل الكلي في تألقه على مرايا العقول الجزئية . الإنسان الكوني هو الإنسان الذي يؤمن بأن هناك حقائق بديهية فطرت عليها عقول جميع البشر هي القواسم المشتركة التي تعطي النوع البشري خصائصه المميزة . هنا ابتدع جنبلاط فلسفة خاصة به بلغت ذروة كمالها فهو مع الحرية على سعيد الإنسان الفرد ومع التضامن والتكافل وتوجيه الاقتصاد والتربية على سعيد الإنسان المجتمع ومع العولمة الشمولية والإنفتاح والتفاعل على سعيد الإنسان الكوني وهذه العناصر جميعها غير متناقضة مع بعضها ، بل هي حلقات في سلسلة واحدة . وتعود الدائرة بعد أن إكتملت الى نقطة البيكار الى الإنسان الذي هو الغاية والنهاية وسدرة منتهى هذا الوجود .

بزبدین 30 \ 4 \ 2005

ندوة ألقىت ونوقشت مع أسئلة وأجوبة بمناسبة عيد العمال وعيد تأسيس الحزب
التقدمي الإشتراكي